

اجرائية قانونية ضد الافراد لا تعطيهم أي حق في الحصول علي دفاع مناسب او محاكمة عادلة، وتسمح باجراء عمليات تفتيش سرية وتتصت واحتجاز لفترة غير محددة. وتسمح هذه الاجراءات، مع أخذ معاملة الأسري في قاعدة غورتنانمو في الاعتبار، للمنظمة التنفيذية في الولايات المتحدة بأن تخطف أسري وتحتجزهم لأمد غير محدد وتكرر بشكل أحمادي ما اذا كانوا أسري حرب وما اذا كانت موثيق جنيف تنطبق عليهم، وهو ليس قراراً يتخذ من جانب بلدان منفردة. بالإضافة الي ذلك، كما قال عضو الكونغرس دنيس كوشينيتش (ديموقراطي من اوهايو) في كلمة رائعة القاها في ٧١ شباط (فبراير)، لم يخول الرئيس ورجاله ان يطلقوا الحرب (عملية الحرية الدائمة) ضد العالم من دون قيد او سبب، ولم يخولوا زيادة الإنفاق العسكري الي أكثر من ٠٠٤ بليون دولار في السنة، ولم يخولوا إبطال لائحة الحقوق . واضاف، في اول تصريح لمسؤول بارز منتخب، لم نطلب ان نكثر لدماء الابرياء، الذين قضوا في ١١ ايلول، بسفك دماء القرويين الابرياء في أفغانستان . وأوصي بقوة بأن ينشر النص الكامل لكلمة النائب كوشينيتش، التي استلهمت الفضل المبدئيء والقيم الاميركية، باللقمة العربية كي يمكن للناس في منطقتنا من العالم ان يدركوا ان اميركا ليست كتلة صماء واحدة تحت تصرف جورج بوش ودوك تشيني، بل تضم في الواقع أصواتاً واتجاهات رأي كثيرة تسمي هذه الحكومة الي إسكاتها او تهميشها.

المشكلة التي يواجهها العالم اليوم هي كيف يجري التعامل مع القوة التي لا نظير لها ولم يسبق لها مثيل للولايات المتحدة، التي لم تخف عملياً حقيقة انها لا تحتاج الي التنسيق مع الآخرين او الحصول علي موافقتهم في سعيها الي تحقيق ما تعتقد حلقة ضيقة من الرجال والنساء حول بوش انه يمثل مصالحها. وبمقدار ما يتعلق الأمر بالشرق الاوسط يبدو بالفعل انه جري منذ ١١ ايلول فرض توجهات اسرائيل علي السياسة الاميركية. واستغل شارون وشركاؤه علي نحو مستهتر اخلاقياً الاهتمام المفرط الذي أولاه جورج بوش لـ الارهاب واستخدموا ذلك كغطاء لمسياستهم الفاشلة المستمرة ضد الفلسطينيين. وتكمن المسألة هنا في ان اسرائيل ليست للولايات المتحدة، كما ان الولايات المتحدة، لحسن الحظ، ليست اسرائيل. لذا، علي رغم ان اسرائيل تحظى بتأييد بوش في اللحظة الراهنة، فإنها بلد صغير لا يتوقف استمرار بقائه كدولة قائمة علي التفوق العربي وسط بحر عربي - اسلامي إتكال نفعي إن لم يكن غير محدود علي الولايات المتحدة فحسب، بل يتوقف بالأحري علي التكيف مع بيئته وليس العكس. وهذا ما يفسر، حسب اعتقادي، لماذا تكشف سياسة شارون اخيراً لعهد كبير من الاسرائيليين كسياسة انتحارية. ولماذا يتبني عدد متزايد من الاسرائيليين موقف ضباط الاحتياط المناهض لخدمة الاحتلال العسكري كمثل يحتذي لموقفهم ومقاومتهم. وهذا افضل شيء افرزته الانتفاضة. انه يبرهن علي ان شجاعة الفلسطينيين وتحديهم بمقاومة الاحتلال أمراً خيراً.

لكن ما لم يتغير هو الموقف الاميركي الذي تصاعد في اتجاه قضاء ميتافيزيقي أكثر فأكثر، يتماهي فيه بوش وأعوانه (كما يتجني في اسم الحملة العسكرية ذاته: عملية الحرية الدائمة) مع الاستقامة والنقاوة والخير والاعتقاد بأن اميركا هي ارض موعودة. ويمكن لكل من تابع الصحافة العالمية في الاسابيع القليلة الماضية ان يتأكد بأن الناس خارج الولايات المتحدة يشعرون بالحيرة والذعر علي السواء إزاء سياسة الولايات المتحدة التي تعطي لنفسها الحق في أن تخفي وتخلق اعداء علي نطاق عالمي، ثم تشن حروباً ضدهم من دون ايلاء اهتمام ينكر لدقة التعريف او ملموسية الهدف او صواب الغاية أو، وهو الاسوأ اطلاقاً، شرعية مثل هذه الاعمال. ماذا يعني دحر الارهاب الشرير في عالم كعالمنا؟ انه لا يمكن ان يعني إستصال كل من يناهض الولايات المتحدة، فهي مهمة غير محدودة وصعبة علي نحو غريب، كما لا يمكن ان يعني تغيير خريطة العالم كي تلائم الولايات المتحدة، لنحل اشخاصاً نعتقد انهم أخطار محل مخلوقات شريرة مثل صدام حسين. ويبدو التبسيط المفرط لهذا كله جذاباً ليبروقراطي واثنتون الذين يمتاز مجال نشاطهم بطابع نظري صرف او يميلون، لانهم يجلسون وراء مناضد في لبيتناغون، الي رؤية العالم كهدف بعيد لقوة الولايات المتحدة الحقيقية تماماً والتي لا تلقي أي مقاومة. فاذا كنت تعيش علي مسافة عشرة آلاف ميل عن أي دولة شريرة معروفة ويوجد تحت تصرفك اعداد وافرة من الطائرات و ٩١ حاملة طائرات وعشرات الغواصات، زائد مليون ونصف مليون شخص تحت السلاح، كلهم مستعدون لأن يخدموا بكلامهم بدوافع مثالية سعياً الي تحقيق ما يواصل بوش وكوتنوليزا رايس الانتشارة اليه باعتباره قوي شريرة، فالأرجح انك ستكون مستعداً لاستخدام كل هذه القوة في وقت ما، في مكان ما، خصوصاً اذا استمرت الإدارة تطلب (وتحصل علي) إضافة بلايين الدولارات الي موازنة الدفاع المتنفخة بالفعل.

أكثر الاشياء إثارة للاهتمام من وجهة نظري هو ان معظم المثقفين والمبشرين في هذا البلد، مع بضعة استثناءات، قبلوا برنامج بوش، بل حاولوا في بعض الحالات الفاضحة ان يتجاوزوه، في اتجاه تبسيطه أكثر تعالياً وإطراء أكثر

حماساً للذات ومجانلة أكثر خداعاً. وما إن يقبلوا به هو ان العالم الذي تعيش فيه، العالم التاريخي الذي يضم دولاً وشعوباً، يتحرك ويعتدق فهمه بواسطة السياسة، وليس بواسطة حقائق مطلقة مثل الخير والشر، حيث تكون اميركا دائماً في جانب الخير، واعدائها في جانب الشر. عندما يعط توماس فريدمان العرب بلا كلل بأن عليهم ان يكونوا اكثر نقداً للذات، ويخلو أي شيء يقوله من أي نبرة من النقد الذاتي. فهو يعتقد، بطريقة ما، ان فظايات ١١ ايلول تعطي الحق كي يعط الآخرين، كما لو ان الولايات المتحدة هي وحدها التي عانت مثل هذه الخسائر المريعة، وكما لو ان الأرواح التي فُقدت في اماكن أخرى في العالم لا تستحق القدر نفسه من التفجع او استخلاص استنتاجات اخلاقية ليست أقل شأناً.

ويلاحظ المرء التناقضات والجهل ذاته عندما يركز المثقفون الاسرائيليون على مأساتهم ويستبعدون من المعادلة المعاناة الأكبر بكثير لشعب مشرد ومحروم من دولة، او جيش، او سلاح جو، او قيادة مناسبة، أي الفلسطينيين الذين تستمر معاناتهم على أيدي الاسرائيليين كل دقيقة وكل يوم. هذا النوع من العمى الاخلاقي، وهذا العجز عن تقويم الأثمة المقارنة لمرتكب الأثم وضحيته (إذا استخدمنا لغة اخلاقية اتحاشاها وامقتها عادة)، هو الوضع السائد تماماً في الوقت الحاضر. ويجب ان تكون مهمة المثقف ذي الفكر الناقد الأ يقع في الفخ وان ينشط للتخفيف من الوقوع فيه. لا يكفي ان يصرح المرء بشكل باهت بأن المعاناة الانسانية كلها متكافئة، ليواصل بعدئذ التفجع بشكل اساسي على تعاليمه هو بالذات. فالأهم من ذلك بكثير هو ان يري ما يفعله الطرف الأقوي، ويجعله موضع مساعلة بدلاً من تبريره. فصوت المثقف هو صوت معارض وناقد للقوة العظمى التي تحتاج دائماً الي ضمير كايح وفاحص ومنظور مقارن، للتلاطم الضمنية، كما هي الحال في اغلب الاحيان، وتُجمَع القوة القطبية على ان تفرض ارادتها. ذهلت قبل اسبوع عندما سألتني صديق اوروبي عن رأيي بشأن اعلان أصدره ٠٦ مثقفاً اميركياً ونشر في كل الصحف الفرنسية والالمانية والاطالاية الرئيسية وغيرها من الصحف في أوروبا، لكنه لم يظهر في الولايات المتحدة إطلاقاً، ما عدا شبكة الانترنت حيث لم ينتبه اليه سوى بضعة اشخاص. اتخذ هذا الاعلان صيغة موعظة طنانة حول كون حرب اميركا ضد الشر والارهاب عاتية ومنحزمة مع القيم الاميركية، حسب ما يعرفها هؤلاء الذين نصبوا انفسهم مفكرين ليبلاننا. وحمل الاعلان، الذي لفتت كلفته ورعته جهة تدعي معهد القيم الاميركية، الذي يعتبر ان هدفه الرئيسي (والمدعوم مالياً بسطاء) هو ترويج الفكر لمصلحة العائلة و الأبوة و الأمومة، توافيق صموئيل هنتينغتون وفرانسيس فوكوياما ودانييل باتريك موهايان مع كثيرين غيرهم. لكن كاتبه الاساسي هو الباحثة الاكاديمية المحافظة جين بتكي إشتين، ويستوحى آراؤه الاساسية حول حرب عائلة من البروفسور مايكل والزر، وهو اشتراكي مفترض متحالف مع اللوبي المؤيد لاسرائيل في هذا البلد، ويتمثل نوره في تبرير كل ما تقوم به اسرائيل بالرجوع الي مبادئ يسارية مبهمه. وبالتوقيع على هذا البيان، تخلي والزر عن كل ادعاء باليسارية ووضع نفسه، مثل شارون، الي جانب تصور لاميركا (وهو تصور مشكوك فيه) كمحارب صالح ضد الارهاب والشر، وذلك للدعاء بأن اسرائيل والولايات المتحدة بلدان متماثلتان ولديهما اهداف متماثلة.

وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، لأن اسرائيل ليست دولة لمواطنيها بل لكل اليهود، بينما الولايات المتحدة هي بالتأكيد ليست سوى دولة مواطنيها. بالإضافة الي ذلك، لم يملك والزر الشجاعة ابداً كي يعن بجرأة انه يتأيده لاسرائيل اما يؤيد دولة تقوم بنيتها على مبادئ قومية - دينية، وهو ما سيعارضه (بنفاق نموذجي) في الولايات المتحدة لو انها أُعتبرت بيضاء ومسيحية. ولو وضعا تناقضات والزر ونفاقه جانباً، فان الوثيقة موجهة في الحقيقة الي اشقائنا المسلمين الذين يفترض ان يفهموا ان حرب اميركا ليست ضد الاسلام بل ضد اولئك الذين يعارضون كل أنواع المبادئ، وهو ما سيكون من الصعب الاختلاف معه. من يمكن ان يمارض المبدأ القاتل بان كل البشر متساوون، وان القتل باسم الله هو شيء سيء، وان حرية الضمير شيء ممتاز، وان الموضوع الاساسي للمجتمع هو الاتساق، وان الدور الصحيح للحكومة هو ان تحمي وتساعد على رعاية الظروف لتلدهار الانساني؟ لكن الجزء الذي يلي ذلك من البيان يظهر اميركا بوصفها الطرف المظلوم. وعلى رغم الاقرار ببعض اخطائها على مسعد السياسة بشكل وجيز للغاية (ومن لون نكر أي شيء محدد بتفصيل)، فإنها توصف بكونها ملتزمة بمبادئ تتلوه بها الولايات المتحدة، مثل امتلاك الجميع لكرامة ومكانة اخلاقية متأصلة، ووجود الحقائق الاخلاقية الشاملة وتوفرها للجميع، او ان الكياسة مهمة حينما يوجد خلاف، وان حرية الضمير والدين هما انعكاس لكرامة الانسان الاساسية ومعترف بهما على مستوي عالمي. ممتاز. فعلى رغم ان كتاب هذه الموعظة يقولون ان مبادئ عظيمة كهذه غالباً ما تتعرض الي الانتهاك لايجدل أي جهد للتصحيح عن مكان وجود هذه الانتهاكات. فبما (فهى تقع على الدوام)، او ما اذا كان الانتهاك الذي انتقد هو في الحقيقة جزء من المأساة، ومن ذلك

يعرض والزر وزملاؤه في هامش طويل لائحة بعدد جرائم القتل التي ارتكبت بحق اميركيين من قبل مسلمين وعرب، من ضمنها افراد البحرية الذين قتلوا في بيروت في ٢٨٩١، بالإضافة الي مقاتلين عسكريين آخرين. ويبدو ان إعداد مثل هذه اللائحة شيء مهم بالنسبة الي هؤلاء المدافعين بحماس عن اميركا، بينما لا يرون ضرورة لذكر او جدولة اسماء القتلى من العرب والمسلمين - بما فيهم مئات الآلاف الذين قتلوا باسلحة اميركية من قبل اسرائيل بدعم من الولايات المتحدة، او مئات الآلاف الذين قتلوا نتيجة العقوبات التي تدميها الولايات المتحدة ضد سكان العراق المدنيين الابرياء. أي كرامة هذه عندما يُقتل الفلسطينيون من قبل اسرائيل، بتواطؤ وحتى تعاون اميركي، وابن هو الذبل والضمير الاخلاقي عندما لا يقال أي شيء بينما يُقتل الاطفال الفلسطينيين ويحاصر ملايين الأشخاص، ويبقى ملايين آخرون لاجئين محرومين من دولة؟ وماذا بشأن الملايين الذين قتلوا في فيتنام وكولومبيا وتركيا واندونيسيا بتأييد اميركا وعلمها؟

اجملاً، لا يبدو اعلان المبادئ هذا والشكوي الموجهة من مثقفين اميركيين الي اشغالهم المسلمين تعبيراً عن ضمير حقيقي او نقداً صادقاً لمتقنين ضد الاستخدام المتطرس للسلطة، بل إنه بالأحرى أول طلقة في حرب باردة جديدة تعلنها الولايات المتحدة بتعاون كامل مثير للسخرية، كما يبدو، مع اولئك الاسلاميين الذين جادلوا بان حربنا هي مع الغرب ومع اميركا. واذا تحدثت كشخص له حق علي اميركا والعرب، فإتني اجد هذا النوع من اللغة المنمقة كريهاً تماماً. فهي اذ تتظاهر بشرح مبادئ و اعلان قيم، اما تفعل العكس بالضبط، لتمثل تمريناً علي التجاهل، وعلي تضليل القراء بلغو وطني يشجع الجهل اذ يتجاهل الحياة السياسية الحقيقية والتاريخ الحقيقي والقضايا الاخلاقية الحقيقية. وعلي رغم متاجرتها المبتذلة بـ مبادئ وقيم عظيمة، فانها لا تفعل شيئاً من ذلك، سوى التلويح بها بطريقة متجبرة مصممة لترويج القراء الاجانب كي يذعنوا. ولدي إحساس بأن هذه الوثيقة لم تُنشر هنا، في الولايات المتحدة، لأنها كانت ستتخذ بحدة من جانب القراء الاميركيين وتصبح موضع ازدراء وسخرية.

وأياً كان الامر، فإن نشر اعلان ما هي القيم الاميركية؟ يؤذن بعصر جديد ومنحط في انتاج الخطاب الثقافي. فعندما يضع مثقفو البلد الأقوي في تاريخ العالم انفسهم علي هذا النحو الفطرح الي جانب هذه القوة، ويتبنون موقف هذه القوة بدلاً من الحوض علي ضبط النفس والتأمل والحوار والفهم بصدق، تعود الي الماضي الرديء للحرب الثقافية ضد الشيوعية، التي نعلم الآن انه ترتب عليها الكثير من المساومات والتواطؤ والتزييف من جانب مثقفين وفنانين كان ينبغي ان يلعبوا دوراً مختلفاً تماماً. فأولئك المثقفين والفنانين الطامشين والمفتقرين كلياً الي قواعد التقدير، الذين لقوا، في الخمسينات والستينات، إسناد الحكومة ودعمها المالي (بشكل خاص من وكالة سي آي إي) التي مضت الي حد اصدار مجلات مثل إنكوانتر وتقديم الدعم المالي لاجلحات اكلاديمية وسفرات وحفلات موسيقية، بالإضافة الي معارض فنية)، جلبوا لفكرة النزاهة الفكرية بأكملها بعداً جديداً وكارثياً. فالي جانب هذا الجهد كانت هناك أيضاً الحملة الداخية لخلق الجدل وترهيب النقاد ولتضييق علي الفكر. وكانت هذه بالنسبة الي اميركيين كثيرين، مثلي انا، حدثاً مخزياً في تاريخنا، ويجب ان نحظرها ونقاوم عودتها.

□ استاذ الاكليزية والادب المقارن في جامعة كولومبيا.